جاء عند الطبراني بإسناد صحيح من حديث أبي طويل: أنه أتى رسول الله ﷺ؛ فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها، فلم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجةً ولا داجةً إلا أتاها، فهل له من توبة؟

قال: «فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟»، قال: أما أنا؛ فأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنك رسول الله، قال: «نَعَمْ؛ تَفْعَلُ الخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ»، قال: وغدراتي وفجراتي؟! قال: «نَعَمْ»، قال: الله أكبر! فما زال يكبر حتى توارى.

وَإِنِّي لأَدْعُو اللهَ أَطْلُبُ عَفْوَهُ
وَأَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَعْفُو وَيَغْفِرُ
لَئِنْ أَعْظَمَ النَّاسُ الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا
وَإِنْ عَظُمَتْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ تَصْغُرُ

حديثنا عن اسم ما سمع به مذنب ولا مؤمن إلا تعلق قلبه به، وفرح به فرحًا شديدًا، وفتح له باب أمل؛ إنه: اسم الله (الغفور والغفار ﷻ).

قال ﷻ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[الحجر:٤٩]، وقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾[نوح:١٠]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[النجم:٣٢].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية.

وربُّنا ﷻ هو الساتر لذنوب عباده، المغطيهم بستره؛ فلا يطلع على ذنوبهم أحد غيره، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم.

فهو ﷻ يغفر ذنوب عباده مرة بعد مرة، إلى ما لا يحصى، كلما تكررت توبة العبد من الذنب تكررت المغفرة من الله ﷻ.

❐ الباب مفتوح..

ذكر الطبراني وغيره: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أحدنا يذنب الذنب؟ قال: «يُكْتَبُ عَلَيْهِ»، ثم قال: يستغفر منه ويتوب؟ قال: «يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ، وَلَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا»[حديث حسن. وهو في «المعجم الكبير والأوسط»].

وَهُوَ الغَفُورُ فَلَوْ أَتَى بِقُرَابِهَا ... مِنْ غَيرِ شِرْكٍ بَلْ مِنَ العِصْيَانِ

لأَتَاهُ بِالغُفْرَانِ مِلءَ قُرَابِهَا ... سُبْحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الغُفْرَانِ

فتح الله ﷻ بابه لكل التائبين والمذنبين والخطائين؛ فقال ﷻ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزمر:٥٣]، بل نادى من فوق سبع سماوات الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة؛ ناداهم بالتوبة؛ حتى يغفر لهم؛ فقال: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة:٧٤].

جميع الذنوب تُغفر؛ عدا من أقبل على الله وهو مشرك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ [النساء:٤٨].

والآيات في هذا كثيرة.

وأما السنة؛ ففي الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» [حديث صحيح. رواه الترمذي].

هذا لمن جاء بالاستغفار مجردًا عازمًا على عدم العودة، صادقًا في توبته، وإذا علم الله صدقه بدل سيئاته حسنات، وهذا من جوده وكرمه على عباده.

❐ لا تقنطوا!

والأعمال الصالحة مكفرة للذنوب، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود:١١٤]، وصح عنه ﷺ: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[حديث حسن. رواه الترمذي].

والمصائب التي تصيب العبد -سواء في نفسه أو في ولده أو ماله- تكفر سيئاته؛ إذا احتسب ثوابها، وصبر، ورضي بقضاء الله ﷻ.

والله ﷻ أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل فقد راحلته في فلاة وعليها طعامه وشرابه ثم وجدها.

ومهما عظم الذنب أو تكرر من العبد؛ فإن الله أوسع في رحمته ما دام العبد يستغفر: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦]، وصح عنه ﷺ فيما يحكيه عن ربه ﷻ، قال: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ؛ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ! فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[أخرجه مسلم].

أي: ما دمت تائبًا أوَّاهًا منيبًا.

❐ انكسر لمولاك!

وباب الله ﷻ مفتوح لكل التائبين والمنيبين، وهو لم يزل ولا يزال عفواً غفوراً، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[طه: ٨٢]، ومن كثرت ذنوبه وسيئاته حتى فاتت العدّ والإحصاء؛ فليستغفر الله مما علِم الله، فإن الله قد علم كل شيء وأحصاه .

وهذا لا يعني: أن يسرف المسلم في الخطايا والذنوب، ويتجرأ على معصية الله بحجة: أن الله غفور رحيم! فالله ﷻ قال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾[الإسراء:٢٥]، قال الفضيل ابن عياض رحمه الله: " استغفارٌ بلا إقلاع.. توبةُ الكذَّابين".

❐ حبل النجاة..

وقد أمر جميع الخلق بالاستغفار وعلى رأسهم: الأنبياء؛ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾[نوح:١٠].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «وَاللهِ! إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[أخرجه البخاري]، هذا في حق الأنبياء؛ فمن دونهم أولى بالاستغفار.

قال النبي ﷺ لعلي بْنِ أبي طالب رضي الله عنه: «أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتَهُنَّ

غفرَ اللَّهُ لَكَ؛ وَإِنْ كُنْتَ مَغْفُورًا لَكَ؟»، قَالَ: «قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَلِيُّ العَظِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الحَلِيمُ الكَرِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ العَظِيمِ»[صحيح، رواه الترمذي].

وقال علي ﷺ: "العجب ممن يهلك ومعه النجاة! قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار".

وقال قتادة ﷺ: "القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم؛ أما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار".

قال شيخ الإسلام ﷺ: "الذنوب سبب للضُّر؛ والاستغفار يزيل أسبابه؛ كما قال ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الأنفال: ٣٣]".

قال ابن كثير ﷺ: "ومن اتصف بهذه الصفة أي: صفة "الاستغفار" يسر الله عليه رزقه. وسهّل عليه أمرَه. وحفظ عليه شأنه وقوته".

أَشْكُوْ إِلَيْكَ ذُنُوْبًا لَسْتُ أُنكِرُهَا

وَقَدْ رَجَوْتُكَ يَا ذَا المَنِّ تَغْفِرُهَا

مِنْ قَبْلِ سُؤْلِكَ لِي فِي الحَشْرِ يَا أَمَلِي

يَوْمَ الجَزَاءِ عَلَى الأَهْوَالِ تَذْكُرُهَا

أَرْجُوْكَ تَغْفِرُهَا فِي الحَشْرِ يَا أَمَلِي

إِذْ كُنْتَ سُؤْلِي كَمَا فِي الأَرْضِ تَسْتُرُهَا

وسر الجمع بين (لا إلهَ إلا الله) و(الاستغفار) في قوله ﷺ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[محمد:١٩]: "إن التوحيد يُذهب أصل الشرك، والاستغفار يمحو فروعه.

فأبلغ الثناء: قول: لا إله إلا الله، وأبلغ الدعاء: قول: أستغفر الله، فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ولإخوانه من المؤمنين والمؤمنات".

اللهم! اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين؛ يا رب العالمين!